تأملات فى الأدب والحياة

للأستاذ اسماعيل مظهر

الثقافة التقليدية :

فى مقالات بعنوان « التعليم والحالة الاجتماعية » نشرتها فى الرسالة الغراء منذ حين ، روجت لنظرية استخلصتها من تاريخ الأمم ودعوتها نظرية « الثقافة التقليدية » . ومؤدى هذه النظرية أن لكل أمة من الأمم ثقافة مأثورة تنتقل على الزمن من أهل إلى أهل ، وتتوارثها الأمم طبقة بعد طبقة ، وأن الثقافة التقليدية الخاصة بكل أمة من الأمم أو سلالة من السلالات ، لها من الأثر فى الحالات الاجتماعية ، ما للصفات الوراثية الحيوية من الأثر فى الأفراد ، وأن شباب الأمم من حيث القدرة على الرقى والاحتفاظ بصورة من المدنية تلائم مقتضى البيئة والظروف القائمة من الدنيا الحافة بالأمم ، إنما يرجع فى الحقيقة إلى استمساك الأمة بثقافتها التقليدية واتخاذها أصلاً ثابتاً يغرس فيه ما ينتحل من ثقافات الأمم الأخرى ، فتتكيف هنالك المبادئ المنتحلة ، تكيفاً ملائماً لطبيعة ما توارث الأمم من مأثور ثقافتها التقليدية . وبذلك تحتفظ الأمة بطابع خاص وتجرى تطوراتها الاجتماعية والعقلية والنفسية على قاعدة ثابتة وأسلوب راسخ ، فتأمن بذلك شر الفورات الفجائية والثورات المجتاحة والكوارث الاجتماعيه المفنية ، ويكون لها من مجموع ما حفظت من مأثور أسلافها ضابط يضبط نزوات الأفراد ، ويهيئ المجموع بعقلية ذات طابع تقليدى تكون لها بمثابة الكمامة التى تصدها عن التورط فى نواح من التطور غير مضبوطة المعايير ، أو التعلق بأذيال فكرات ومبادئ مريضة المنطق ، بعيدة عن حاجاتها الأولية التى تضمن لها الاتزان والتعقل فى طريقها إلى أسمات جديدة من المدنية أو الرقى العقلى

ولقد أردت بهذه النظرية أن تكون أساساً لسياسة التعليم فى مصر ، فنتخذ من الأصول التقليدية التى قامت عليها المدنيتان العظيمتان ، مدنية الفراعنة فى مصر ، وأساسها الزراعة والقوة الحربية ، ومدنية العرب وأساسها الاسلام والأدب العربى ، منارة نستشرف منها ما نحتاج من مبادئ عامة فنحور من برامجنا التعليمية وخططنا الثقافية بما يلائم طبيعة التقاليد المأثورة عنهما ، ذلك بأن الثقافة التقليدية فى نفسية الأمم وعقلياتها بمثابة الصفة الوراثية فى الفرد ، لا تنفك الأمم عن الأولى أو ينفك الفرد عن صفة تلقاها عن أسلافه

هذه النظرية على ما فيها من بساطة فى الظاهر تحتاج فى إثبات حقائقها إلى تأملات تاريخية عميقة ، ينفذ الباحث من طريقها إلى أبعد غور من الأعماق التى ينزل إليها قارئ التاريخ العادى . فان وراء الحوادث الظاهرة فى صفحات التاريخ كانقراض الأمم المالكة ، أو فتوح البلاد ، أو اندحار الجيوش وانتصارها ، أو قيام الحكومات المختلفة وسقوطها ، أو تسلط الأفراد على الأمم وإطراح الأمم لسلطة الأفراد ، حقائق أخرى تصدر عن صفات نفسية تختفى من وراء الحوادث الظاهرة ، فتكون بمثابة القوة المحركة أو الطاقة فى المادة ، فهى بخفية بأعيانها ، ظاهرة بآثارها . وهذه القوة إنما تمكن وتستخفى طوعاً لظروف خاصة ، وتظهر وتستقوى على غيرها طوعاً لظروف أخرى ، وهذه الظروف التى تمكن معها القوى المحركة للجماعات أو تظهر ، ينبغى أن تكون موضوع كل من يكب على التأمل فى الثقافات التقليدية لدرس ما لها من أثر فى كون هذه القوى أو ظهورها ، بحسب ما يحيط بالجماعات من ظروف تبعدها عن ثقافتها التقليدية أو تقربها منها

أما إذا أردنا أن نستوثق من حقيقة هذه النظرية ، فعلينا أن نرجع إلى التاريخ ، علينا أن نرجع إلى أقرب تاريخ منا ، أى إلى تاريخ العرب . فان الأمة العربية سادت الدنيا عندما استمسكت بمرى ثقافتها التقليدية ، وفقدت الدنيا عندما انحرفت عن الاسترشاد بثقافتها المأثورة . وكذلك كان شأن روما وشأن اليونان قبل العرب . أما الدورات التى انتابت الأمم متراوحة بين الاستعلاء حيناً والتنكس حيناً آخر ، فما هى إلا دورات تقرأ فيها صوراً من التطور ترجع فى حقيقتها إلى استمساك الأمم بثقافتها التقليدية حيناً ، وتفريطها فى ذلك حيناً آخر

فعلينا إذن أن نرسم لمستقبلنا خطة نتخذ فيها ثقافتنا التقليدية نبراساً نستضيء به ، وإلا فانا سوف نظل نتخبّط فى الظلام فلا نستقر

حادثة:

قد تقرأ تاريخاً كاملا كتاريخ الاسكندر المقدونى وفتوحاته الكبيرة ، وقد تستجلى فى هذا التاريخ صوراً من شجاعة الرجل ومن إقدامه ، وقد تجد فى انتصار من انتصاراته سبباً للتأمل والعبرة ؛ غير أن كل هذا لايدلك على حقيقة الرجل قدر ماتدلك حادثة من الحوادث الصغيرة فى حياته

بعد أن هزم الاسكندر جيش فارس الهزيمة الأولى ، تقدم بجيشه نحو « طرسوس » ، وهى مدينة حصينة من مدن آسيا الصغرى ، تعرف فى التوراة باسم « طرشيش » ، وجاء عيون الأسكندر يخبرونه بأن الجيش الفارسى قد عزم على أن ينهب المدينة ويحرقها إذا لم يبادر الاسكندر باحتلالها . فترك قائده الأكبر « قرمنيون » على رأس المشاة وتقدم الفرسان منحدراً من الجبال العالية بمقربة من البحر ، إلى السهل الذى تستوى فيه طرسوس ، وجد فى السير ، حتى يتسنى له أن ينقذ المدينة قبل أن يفعل بها الفرس ، والسهل الذى تستوى فيه المدينة شديد الحر كثير الرطوبة ، وقد أفرغ الاسكندر على جسمه درعه الثقيل وعدة حربه ، ممتطياً صهوة جواده الصوّال « بوقيفالوس » ، فقطع أميالاً من الوهاد والوديان ، حتى إذا أشرف على المدينة ، كان قد بلغ منه العطش ، فنزل على ساحل نهر « البَرَدَان » وخلع درعه واستحم فى النهر ، والظاهر أن هذا النهر ينبع من الجبال ويستمد ماءه من ينابيع باردة ، فماؤه مثلج بفطرته ، ولقد أصاب الخليفة المأمون مرض إثر استحمامه فى نهر البَرَدان فمات ، ولقد أوشك الاسكندر أن يموت ، كما مات خليفة المسلمين من بعده ؛ ولزم الاسكندر فراشه بعد أن دخل « طرسوس » وشاع أن حياته فى خطر

كان من الأطباء الذين يعنون به ، طبيب شيخ يدعى « فليب الأكرنانى » ؛ وكان من قبل طبيباً لأبيه ومن المتفانين فى خدمة بيت مقدونيا المالك ؛ وقد أقر جميع الأطباء بأن الاسكندر ميؤوس منه ، إلا هذا الرجل ، فأنه نصح للاسكندر أن يذعن إلى رأيه وأن يشرب جرعة سيعدها له بنفسه ، ورضى الاسكندر بذلك على رغم عناده ؛ وخرج الطبيب من حجرة الملك المريض ليعد جرعة الشفاء

فى اللحظة التى خرج فيها الطبيب إلى الحجرة ، دخلها رسول من قبل قائده « قرمينون » يحمل رقعة فى يده ، فقدمها إلى الاسكندر ؛ وكانت تحذيراً للاسكندر من طبيبه « الأكرنانى » فقد اتصل بسمع القائد أن الطبيب مالأ الفرس عليه وأنه تلقى منهم رشوة ليدس له السم فى الدواء

كان الاسكندر قد أتم قراءة الكتاب لما دخل عليه الطبيب حاملاً الجرعة التى أعدها ؛ فتناول الأسكندر الجرعة بيده اليمنى وناوله الرقعة بيده اليسرى ؛ وطفق الاسكندر يكرع الجرعة ، والطبيب ينظر فى الرقعة نظرات جامدة حيرى ؛ ثم ناول الاسكندر الكأس الفارغة للطبيب ، وناول الطبيب الرقعة للاسكندر ؛ ونظر كل من الرجلين فى وجه الآخر برهة ، ثم استلقى المريض على فراشه ، وانصرف الطبيب إلى شأنه ، من غير أن ينبس أحدهما ببنت شفة .

ألست تجد فى هذا الحادث الصغير معنى عظيماً يدلك على أن القلب الذى حمله الاسكندر كان جديراً بأن يفتح العالم ويدوخ الدنيا برمتها ؟

حاجة اللغة العربية :

قد تكون لغتنا العربية السمحاء فى حاجة إلى كثير من وجوه الاصلاح . قد نقول بأن كتب النحو غامضة وأن قواعد الصرف مشتتة ، وقد نقول إن أدب العربية لم يخدم بعد الخدمة الواجبة ، بل نقول إن اختلاف مذاهب النحويين ، وجمود الكثير من اللغويين أمران لابد من النظر فيهما وإصلاح شأنهما بما يلائم حاجات أبناء العربية فى هذا العصر ، كل هذا وأكثر منه صحيح ، والحاجة إليه ماسّة ؛ غير أن أحوج ما تحتاج إليه اللغة العربية المعجمات ؛ وأول ما نتكلم فى المعجمات القديمة

أما هذه فامّا مطولة ترضى نزعة الباحث الذى تمكن من الأدب وربى فيه الذوق الأدبى ، فأدمن البحث وطلب الاستقصاء ؛ وإما مختصرة اختصاراً مخلاً فى كثير من نواحى الارشاد اللغوى ؛ وليس بين هذين وسط يسد طِلْبَة الأديب

العار فى رياض الأدب عبور المستفيد ، فلا هو بالمستقصى ولا هو بالقانع بما بين يديه ، وهؤلاء هم جمهرة الأدباء عندنا ، بل وفى كل الأمم . ناهيك بأن معجماتنا القديمة قد تركت كل مادة علمية من المواد التى عرفها العرب ودرسوها من غير تعريف ؛ فهذه دُوَيبَّةٌ ، وذاك طُويْرٌ ؛ وهذا نبت يكون فى العراق ، وذلك عرق فى الساعد أو الزند ؛ وكذلك صفة الأمراض ، أفى الانسان كانت أم فى الحيوان ، فقد قرأت فى صبح الأعشى من عيوب الخيل ما يزيد على المئة عيب ، كلها ، كما أعتقد ، تمت إلى أمراض ؛ غير أنك قلما تقع على عبارة تشخص لك المرض أو أعراضه الصحيحة ؛ فمعجماتنا ناقصة من هذه الوجهة نقصاً شائناً ، ناهيك بأن فى كتب الأدب والتاريخ والخطط والشعر والتراجم ألفاظاً لم تدخل المعجمات القديمة ؛ ولا نقصد بذلك الألفاظ المولدة ، بل نقصد بها ألفاظاً فصيحة صحيحة ، فالمعجمات القديمة إذن لم تحط بكل ما فى العربية من مادة لغوية ؛ وهذا نقص نضيفه إلى ما عددنا قبل .

نتكلم بعد هذا فى أنواع المعاجم التى نطالب الآن بوضعها لتتم حاجة اللغة ؛ وأول ما نحتاج إليه المعاجم التى تقابل فيها مفردات لغتنا ، مفردات لغة أخرى ؛ وليست الحاجة فى هذا مقصورة على لغة أو لغتين فان الواجب يحتم علينا أن ننظر إلى كل اللغات الحية ، بل وبعض اللغات غير كثيرة الانتشار ، لنضع لها معجمات تقابل مفرداتها مفردات من اللغة العربية ، على غرار ما نرى فى المعاجم الكثيرة عند الأمم التى أدركت ما للمعاجم من أثر فى إحياء اللغات ونشر الثقافة والمعرفة .

تأتى بعد ذلك حاجتنا إلى المعاجم الخاصة بالعلوم والفنون ؛ فلست تجد الآن معجماً واحداً يرضى حاجة المختصين فى علم من العلوم أو فن من الفنون ويسعفهم بالكلمة الصحيحة والتعريف الكامل للمصطلحات التى تصادفهم أثناء بحوثهم ؛ وهذا نقص معروف شائع ، فلا حاجة إلى التوسع فى شرح الحاجة إلى سَدِّ ثغرته ؛ وإنما يتبقى لنا أن نتعرف أن أمامنا فى هذا مجهود شاق طويل علينا أن نبذله وأن نضحى فيه بالجهد والمال والعين والصافية

أما الطامة الكبرى والمصيبة العظمى فتشعر بها إذا قارنت بين الأسماء القديمة والحديثة الواردة فى كتب التاريخ أو الجغرافية ، فقد تقرأ الاسم الواحد الدال على ذوات بعينها مرسوماً بعدة أهجية مختلفة فى كتب مختلفة أو فى كتاب واحد ؛ فقد يتفق أن يكون المؤلف قد اعتمد على كتب إنجليزية تارة وعلى كتب فرنسية تارة أخرى ؛ فينتقل الاسم الواحد كما يلفظه ويرسمه الانجليز مرة ، وكما يلفظه ويرسمه الفرنسيون مرة أخرى ؛ ولا تبلغ بلبلة الألسن فى هذه الناحية من الفساد مبلغها فى نقل الأسماء القديمة ، وبخاصة إذا كانت أسماء عرفها العرب ، فقد قرأت فى كتب مختلفة الأعلام الآتية : مرجراط ، مرجرات ، مرغرات ، مرغراط ، مرج راهط ، مرج راهد ، مرجراء ، وكلها للوقعة المعروفة فى مرج راهط ؛ وقرأت : رقطيس ، راقتيس ، راقطبس ، راقوده ، رقوته ، وكلها للمستعمرة الاغريقية المعروفة راقوطيس فى شمال الدلتا فى تاريخنا القديم وهى راقودة عند العرب ؛ وقد أذكر أن الفروق فى رسم الأعلام قد بلغ من الاختلاف فى أسماء أخرى مبلغاً لا يدركه أشد الواثقين على حقيقة الأسماء القديمة ، ولا شبهة عندى أن مبتدئاً فى درس التاريخ أو الجغرافية إذا وقع له مثل هذا فى كتب مختلفة أو كتاب واحد لظن لأول وهلة أن اختلاف الرسم يدل على اختلاف الذات .

هذه الحال تحفزنا إلى الدعوة لوضع معاجم لأسماء الأعلام ، فنحتاج إلى معاجم فى أسماء الأعلام القديمة ، ومعاجم لأسماء الأعلام الحديثة ، ومعاجم تضبط فيها أسماء الأعلام العربية ، وإن من الأسماء العربية ما تقرأه على أوجه عديدة إذ لم يكن تام الضبط بالشكل الكامل

لم أتناول فى هذه الكلمة إلا بعض حاجة اللغة العربية إلى المراجع ، فهل قدرنا كل ذلك ؟ وهل اتخذنا العدة للعمل ؟ وهل لهذا العمل ظهراء من أغنياء هذا البلد والقائمين على أمره ؟ نرجو مؤملين أن تتوجه الجهود إلى هذا العمل إن كانت الرغبة فيه موجودة ، ونرجو أن يتضافر الكتاب والباحثون على خلق الرغبة فيه إذا لم تكن موجودة

اسماعيل مظهر